طبقة الأشراف وجوانبها الإجتماعية في زمن أبي بكر

أكرم محسن عبدالحسين العبيدي
طالب دكتوراه، كلية التاريخ، جامعة الآديان والمذاهب، قم، إيران
Kka4mm@gmail.com
الدكتور محمد زارع البوشهري (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد، كلية التاريخ، جامعة الأديان والمذاهب، قم، إيران
m.zare@urd.ac.ir
الدكتور سيد ناصر موسوي
أستاذ مساعد، كلية التاريخ، جامعة الأديان والمذاهب، قم، ايران
sn.musavi@urd.ac.ir

The nobility and its social aspects during the time of the Abu Bakr

Akram Adul-Hossein Al-Obeidi
PhD Student , Faculty of History , University of Religions and Denominations , Qom , Iran
Dr. Mohammed Zare Boshehri (responsible author)
Assistant Professor , Faculty of History , University of Religions and Denominations, Qom, Iran
Dr. Sayyed Nasser Mousavi
Assistant Professor , Faculty of History , University of Religions and Denominations, Qom, Iran

الملخص:-

طبقـــة الأشـــراف في العصـــر الإسلامي المبكر طبقة مغلقة أو وراثية بشكل كامل، بل كانت هناك بعض الحركية الاجتماعية، وإمكانية الترقي أو التراجع في المكانة الاجتماعية. بعد وفاة النبي محمد ﷺ، ظهرت الحاجة إلى قيادة موحدة ومنظمة للدولة الإسلامية الناشئة. كان الخلفاء الأوائل يعتمدون بشكل كبير على كبار الصحابة والأشخاص ذوي الخبرة والكفاءة في إدارة شؤون الدولة والمجتمع. كان للأشراف دور هام في صنع القرار في الدولة الإسلامية المبكرة، من خلال المشاركة في الشورى، وتقديم المشورة للخلفاء كان الأشراف يتولون مناصب إدارية وعسكرية هامة في الدولة، مثل الولاة والقادة العسكريين كذلك كان للأشراف دور في الوساطة والصلح بين الأفراد والجماعات، وحل النزاعات. ساهم الأشراف في الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي والسياسي للدولة الإسلامية المبكرة.

الكلمات المفتاحية: الاشراف، طبقة الاشراف، أسباب ظهورها.

Abstract:-

The class of nobles in the early Islamic era was a closed or completely hereditary class, but there was some social mobility, and the possibility of promotion or decline in social status. After the death of the Prophet Muhammad (peace be upon him and his family) , the need for a unified and organized leadership for the emerging Islamic state arose. The early caliphs relied heavily on senior companions and people with experience and competence in managing the affairs of the state and society. The nobles played an important role in decision-making in the early Islamic state, through participation in consultation, and advising the caliphs. The nobles held important administrative and military positions in the state, such as governors and military leaders. The nobles also played a role in mediating and reconciling individuals and groups, and resolving disputes. The nobles contributed to maintaining the social and political stability of the early Islamic state.

Key words: Nobility, Noble class, reasons for its emergence.

الإشراف لغة واصطلاحاً:

١. الاشراف لغة

الإشراف هو مصدر الفعل "أشرف"، ويأتي بعدة معانٍ. المعنى الأول هو الاطلاع على شيء من موقع عالٍ؛ حيث يقال: "أشرفت على الشيء"، أي قمت بمشاهدته من أعلى (الراغب الاصفهاني، ١٤١٢هـ: ج١، ص١٢١). المعنى الثاني هو العلو والارتفاع، حيث يشير "إشراف الموضع" إلى ارتفاعه (ابن الاثير، ١٩٩٧م: ج٢، ص٤٦٢). المعني الثالث هو الاقتراب والدنو، يعبر عن ذلك بقولهم: "أصبح المريض على وشك الموت"، أي اقترب منه (ابن منظور، ١٤١٤هـ: ج٧، ص٩٢).

٢. الإشراف في الاصطلاح

استخدم الفقهاء هذا المصطلح بنفس الدلالات اللغوية، حيث وظفوا المعنى الأول (المادي) في سياق غير مادي، ليشمل الإشراف على أمرٍ ما، ومراقبته، ومتابعة شؤونه (الفيومي، ١٩٨٧م: ج١، ص٣١٠).

٣. طبقة الاشراف

تشمل الطبقة الأشراف النبلاء وملاك الأراضي، الذين تأتي ثرواتهم من ملكية الأراضي والشركات وغيرها من المؤسسات الاقتصادية الكبيرة والسيطرة عليها واستغلالها؛ وكذلك طبقة الاشراف تعني طبقة صاحب العرق والمكانة العالية وتشير في اللفظ إلى الأشخاص من الطبقة العليا في المجتمع الذين لديهم ميل إلى الترف والتكبر (بيشوايي، ١٤٣٦ه: ص٢٣٤).

الأسباب ظهور طبقة الاشرف: اما الأسباب ظهور طبقة الأشراف، أو النبلاء، ظهرت في العديد من المجتمعات عبر التاريخ لأسباب متعددة، منها:

الوراثة والنسب: في كثير من الثقافات، كانت الطبقات الاجتماعية تُحدد بناءً على النسب والوراثة. العائلات التي كانت تدعي النسب إلى شخصيات تاريخية أو دينية مهمة كانت تُعتبر من الأشراف.

الملكية والثروة: امتلاك الأراضي والثروات كان يعتبر من العوامل الأساسية في تحديد الطبقات الاجتماعية. العائلات التي كانت تمتلك مساحات كبيرة من الأراضي أو ثروات ضخمة كانت تُعتبر من النبلاء.

الدور السياسي: في بعض الأحيان، كانت الطبقات النبي ﷺ تتكون من الأفراد الذين كانوا يلعبون أدواراً سياسية مهمة أو كانوا جزءًا من الحكومة أو البلاط الملكي.

الدين: في بعض الثقافات، كان الدين يلعب دوراً في تحديد الطبقات الاجتماعية. العائلات التي كانت تحتل مناصب دينية مهمة كانت تُعتبر من الأشراف.

التعليم والثقافة: في بعض المجتمعات، كان التعليم والثقافة يعتبران من العوامل التي تُحدد الطبقات الاجتماعية. الأفراد الذين كانوا يتمتعون بتعليم عالٍ أو كانوا مثقفين كانوا يعتبرون من النخبة (جوادي، ٢٠٠٧م: ص١٤).

هذه العوامل وغيرها ساهمت في ظهور طبقة الأشراف في مختلف المجتمعات عبر التاريخ.

عمل الاشراف: قبل الإسلام، كانت للعرب، وخاصة الأشراف، علاقات تجارية مع البلدان المجاورة، وخصوصاً بلاد الشام، حيث كان زعماء قريش من أبرز التجار. وفي فترة الخلفاء الأوائل بعد الإسلام، أولى العرب والأشراف اهتماماً كبيراً بهذا النشاط الاقتصادي، خاصة بعد تفاعلهم مع الأمم الأخرى وتقدمهم في مجالات الحضارة. وزاد عدد التجار الرحل بشكل ملحوظ، حتى أصبحت التجارة من الجوانب الأساسية في الحياة العربية وأحد أسس اقتصادها. وكانت سفن العرب تجوب الأنهار والبحار، بينما كانت قوافلهم تعبر السهول والجبال لنقل مختلف البضائع ذهاباً وإياباً. وقد أصبحت بغداد والبصرة والقلزم والقرماء وعمان وعدن وطرابلس وأنطاكية من أبرز مراكز التجارة العربية وموانئها في تلك الفترة. كما شجع الخلفاء التجارة وحرصوا على حماية طرقها. وكان التجار يستفيدون من التسهيلات المتاحة في طرق الحج ومنازله، مثل توفر المياه ومرافق السكن. وقد أولت الدولة أهمية كبيرة لحماية الطرق التجارية وتأمين سلامة القوافل، حيث قامت بمطاردة قبائل الزط في عهد المعتصم بالله، نظراً لأنهم كانوا يقطعون الطرق التجارية والسفن العابرة في منطقة البطائح (اليعقوبي، ٢٠٠٢م: ص٢٥٠).

أصبحت بغداد عقدة تجارية حيوية بين الشرق والغرب بفضل اتصال نهر دجلة بالفرات عبر شبكة من القنوات والأنهار مثل نهر عيسى والصراة، فضلاً عن موقعها الاستراتيجي. وقد مكنها هذا الموقع من التواصل مع مختلف أقاليم الدولة العربية، حيث وفر تدفق المياه من نهر الفرات روابط حيوية مع آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر، كما شكل نهر دجلة شرياناً رئيسياً لنقل البضائع القادمة من إقليم الرحاب ومناطق آسيا الصغرى، إضافة إلى محاصيل إقليم الجزيرة التي كانت تصل عبر الموصل. أما السفن الضخمة القادمة من الرقة فكانت محملة بالدقيق ومختلف السلع من مصر وبلاد الشام، لترسو في بغداد حيث الأسواق النشطة ومحال التجار. وقد ازدهرت حركة النقل النهري، مما يعكس حيوية التجارة ونشاطها، ولم يقتصر دور دجلة على ذلك، بل كان جسراً يربط بغداد بالمحيط الهندي، مما فتح أبواب التبادل التجاري مع الهند والصين، إلى جانب وصول القوافل البرية القادمة من عمق آسيا عبر المناطق الشرقية.

أما البصرة، فقد كانت الميناء الرئيسي على الخليج، وفضل موقعها جعلها المدخل الجنوبي للعراق، حيث كانت محطة للتجارة القادمة من الشرق والقوافل الآتية من الغرب عبر الصحراء. وتميز تجار البصرة بروح المغامرة وطموحهم في السفر بحثاً عن الربح، حيث يمكن العثور على تاجر بصري في أي مكان بالعالم. وقد قيل إن البصريين هم الأكثر بعداً في البحث عن الكسب، حيث كان من المعروف أنه من يدخل فرغانة أو السوس الأقصى لابد أن يلتقي بتاجر بصري.

كما أصبح سوق المربد مركزاً لتجارة البصرة مع البادية، وازدهر في هذا القرن ليصبح مركزاً مهماً للنشاط التجاري إلى جانب أهميته الأدبية، حتى أطلق عليه "عين البصرة". وكانت الأبلّة تمثل ميناء البصرة ومركز تجارتها البحرية، حيث كانت تضم العديد من الأسواق والخانات التجارية (جوادي، ٢٠٠٧م: ص١٩).

المقدمة:

تُعتبر طبقة الأشراف،إحدى الطبقات الاجتماعية التي لعبت دوراً هامًا في تاريخ العديد من المجتمعات حول العالم. تتميز هذه الطبقة بمكانتها المرموقة، وثروتها الكبيرة، ونفوذها السياسي والاجتماعي. وقد شكلت عبر العصور جزءًا أساسيا من الهيكل

الاجتماعي، مؤثرة في مختلف جوانب الحياة، من السياسة والاقتصاد إلى الثقافة والفنون.تتسم طبقة الأشراف بتراثها العريق، الذي يمتد غالبًا إلى أجيال سابقة، وتتوارث هذه الطبقة امتيازاتها ومكانتها عبر النسب والعلاقات العائلية. وقد شكلت هذه الامتيازات أساسًا لهويتها الاجتماعية، حيث تميزت بأسلوب حياة خاص، وتقاليد وعادات متوارثة، وأساليب تعامل فريدة.تتنوع جوانب الحياة الاجتماعية لطبقة الأشراف، وتشمل علاقاتها مع الطبقات الأخرى في المجتمع، وطرق تفاعلها مع السلطة السياسية، ودورها في المؤسسات الدينية والثقافية. كما تتأثر هذه الجوانب بالظروف التاريخية والاجتماعية التي تمر بها المجتمعات المختلفة.نحن في هذه الرسالة نسعى إلى استكشاف مفهوم طبقة الأشراف، وتتبع نشأتها وتطورها عبر التاريخ، وتحليل جوانبها الاجتماعية المختلفة، مع التركيز على تأثيراتها في المجتمعات التي ظهرت فيها. من خلال ذلك، نأمل في تقديم فهم أعمق لهذا المكون الهام من مكونات الهيكل الاجتماعي، ومساهمته في تشكيل التاريخ الإنساني.

المبحث الأول

طبقة الاشراف وخلفيات وأسباب ظهورها الاجتماعية قبل ظهور الإسلام

تُعد النظم الاجتماعية للأشراف وأسباب ظهورها قبل الإسلام نتيجة تفاعلهم مع البيئة التي عاشوا فيها، حيث تأثروا بشروط تلك البيئة ونسقوا حياتهم الاجتماعية وفق الظروف الطبيعية المحيطة بهم. فقد كانت ظروف المعيشة في شبه جزيرة العرب قاسية، حيث تعاني البلاد من قلة الأمطار وتتميز بأراضٍ صحراوية قاحلة في معظمها، مما جعل البداوة، وخاصة لدى عرب الشمال، هي الأساس في حياتهم.

تمثل البداوة نمط عيش متنقل يعكس تكيف الإنسان مع بيئة الصحراء القاسية، حيث يضطر سكانها إلى العيش حياة ترحال دائمة بعيداً عن حياة المدن المستقرة. فطبقة الأشراف (البدو) كانت تتنقل بشكل مستمر مع قطعانها وخيامها وممتلكاتها المحدودة، تتبع مسار الأمطار ومواقع النباتات الصحراوية.

ونتيجة لشح الموارد الطبيعية، تحولت المناطق الصحراوية إلى ساحة للتنافس بين القبائل، مما ولّد صراعات دائمة وعداوات متوارثة. ومن هنا تأسس النظام القبلي على مبدأ التكاتف الداخلي، حيث يعتمد الفرد على دعم عشيرته أو قبيلته في مواجهة التحديات

الخارجية. وفي ظل غياب سلطة سياسية موحدة أو مصالح مشتركة بين القبائل، أصبح الانتماء القبلي هو الملاذ الآمن والهوية الجامعة للأفراد (برو، ١٤١٧ه: ص٥٤). وكان الأفراد في المجتمعات القبلية يعتمدون بشكل أساسي على قبيلتهم كمصدر للأمان والدعم، على عكس سكان الحواضر الذين يكرسون ولاءهم للدولة في العصر الحديث. فإذا كانت القبيلة تزداد قوة بأفرادها، فإن قوة الأفراد ترتبط بقوة الجماعة، مما يتطلب من كل فرد في القبيلة التضامن مع قبيلته في السراء والضراء، ونصرة أخيه سواء كان ظالمًا أو مظلومًا. وكان أفراد القبيلة يعملون كيد واحدة ضد أي تهديد خارجي، حيث لا يسألون أخاهم عندما يتطلب الأمر الدفاع عنه في الأوقات الصعبة، كما قال برهاني.

هذا التضامن يعرف بالعصبية القبلية، وقد عرّفها ابن خلدون بأنها "النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام لمنعهم من الظلم أو الهلاك". وتمثل العصبية القبلية جانبًا من جوانب الروابط الأسرية، وهي صلة طبيعية بين البشر. وتتولد هذه العصبية لدى الأفراد بشكل واعٍ أو غير واعٍ، وتستمر عبر الأجيال كعاطفة عميقة وفكرة راسخة، مما يعزز من تماسك القبيلة وقوتها (زيدان، ٢٠٢٠م: ج ٣ ص٢٩٥).

تُعتبر العصبية القبلية بمثابة الرابط الذي يجمع بين بطون القبيلة وأفرادها، مما يجعلهم متضامنين ويدًا واحدة. لولا هذا الشعور بالانتماء، لما استطاعوا الدفاع عن أنفسهم ومصالحهم. وبالتالي، تُعتبر العصبية القبلية بديلاً ضرورياً للرابطة القومية، ولكن في إطارها المتطرف.

وعادة ما يرتبط بالعصبية القبلية مفهوم الثأر، حيث تقتضي تقاليد البادية أن يطالب أهل القتيل بدمه من قاتله، وهو ما يعرف باسم "القَوَد"، إلا إذا تم قبول الدية بدلاً من ذلك. وتختلف الدية باختلاف مكانة القتيل الاجتماعية، حيث تكون الدية المستحقة للملوك والزعماء أعلى بكثير من دية الأفراد العاديين أو الصعاليك، ودية القتيل من الأشراف تتجاوز دية القتيل العادي، بينما تصل دية الملوك إلى ألف بعير.

في حال امتناع عائلة القاتل عن دفع الدية أو فرار الجاني، يتحتم على أهل الضحية المطالبة بالثأر. ويعتبر ولي الدم (غالباً الأقرب للمتوفى) المسؤول الرئيسي عن هذه المهمة، حيث يلتزم بالامتناع عن الملذات والاهتمام بمظهره حتى ينال حق قريبه. وقد تمتد هذه

المطالبة لعقود من الزمن وفقاً للمصادر التاريخية (علي، ١٩٧٦: ج١، ص٣٦٧-٣٦٨).

ويؤمن المجتمع العربي التقليدي بأن روح المقتول تظل عطشى تنادي من قبرها "اسقوني فإني صدية" حتى يقتص لها. وعند تنفيذ القصاص بقتل الجاني أو نظيره، يتحقق ما يعرف بالثأر المنيم الذي يطفئ غضب أهل الضحية.

ويترتب على التخاذل في المطالبة بالثأر عواقب اجتماعية وخيمة، حيث يصبح المتهاون موضع سخط المجتمع، وقد يلحق العار بالقبيلة بأكملها إذا تقاعست عن نيل حقها. حتى قبول الدية بدلاً من الثأر لا يعفى من النظرة الدونية من قبل المجتمع.

غالبًا ما يؤدي الانتقام للدم إلى حدوث ثأر جديد، مما يخلق حلقة مفرغة من الثارات المتبادلة، وقد تستمر هذه الصراعات لعدة أجيال. وفي بعض الحالات، يمكن أن تُسوى الأمور إذا تم تسليم القاتل طوعًا أو كرهاً لأهل القتيل ليقتَل، مما ينهي الحاجة لطلب الثأر. لكن القبيلة التي تقوم بذلك قد تجلب على نفسها عاراً لا يمحى، لذا غالبًا ما تفضل القبائل قتل القاتل بدلاً من تسليمه، لتجنب العار.

في بعض الحالات، تلجأ القبائل المتنازعة إلى حل النزاعات الدموية بينها سلمياً عبر اللجوء إلى التحكيم. حيث يتفق الطرفان على اختيار محكم واحد أو مجموعة محكمين لفض النزاع. وقد يصدر الحكم بإلزام القبيلة الأقل تضرراً (من حيث عدد القتلى) بدفع تعويضات مالية (ديات) للطرف الآخر. كما يجوز للمحكمين إسقاط بعض المطالبات الثأرية لعدم استحقاقها دفع الدية، وهو ما يطلق عليه مصطلح "الشدخ". (ابن كثير، ١٤٢٦هـ: ج٧، ص٥٤٦).

ومن الأمثلة التاريخية على ذلك حكم "يعمر بن عوف" في النزاع بين قبيلتي قصي وخزاعة، حيث قضى بإلغاء جميع المطالبات الدموية لقصي ضد خزاعة، واعتبارها ملغاة تحت قدميه. وقد اشتهر هذا الحكم باسم "الشدخ"، مما أكسب المحكم لقب "يعمر الشداخ".

في جوهر الأمر، يمثل الانتماء القبلي والمطالبة بالثأر وجهين لعملة واحدة في المجتمع البدوي، حيث يغيب وجود سلطة مركزية قادرة على حماية الأفراد أو إنصافهم عند التعرض للظلم. في هذا السياق، تتحول العشيرة إلى الملاذ الوحيد الذي يلجأ إليه الفرد

للحصول على الحماية والانتقام. ومن هنا نشأت التقاليد البدوية التي توجب على الفرد أن ينتقم لنفسه أو لأقاربه من أي معتدٍ، مع دعم كامل من أفراد عشيرته وقبيلته في مواجهة المعتدين من خارج القبيلة.

هذه الأعراف القبلية تشكل نظاماً بديلاً يقوم بوظائف الدولة في المجتمعات الحديثة من حيث توفير الحماية وإنزال العقوبات. وهذا النظام البديل يعزز بشكل طبيعي مشاعر الولاء القبلي والتماسك العشائري، حيث ينظر أفراد القبيلة إلى أنفسهم ككيان واحد متكامل لا يتجزأ. ويتجلى هذا التماسك في تسمية مراتب النسب بأسماء أعضاء الجسم، مما يعكس تصورهم لوحدة الكيان القبلي.

وقد صنف الإمام الماوردي هذه المراتب النسبية إلى ست درجات هي: الشعب، القبيلة، العمارة، البطن، الفخذ، الفصيلة، بينما أضاف بعض العلماء مثل النووي درجة العشيرة قبل الفصيلة. وتختلف الترتيبات في بعض التفاصيل بين العلماء، لكنها تظل في مجملها تعكس التصور البدوي للترابط القبلي الذي يشبه ترابط أعضاء الجسد الواحد. يشير هذا إلى التشبيه الشائع في الثقافة العربية بين مراتب النسب وأعضاء الجسم، حيث كانوا ينظرون إلى القبيلة كجسم كامل تتكامل فيه جميع الأجزاء (برو، ١٤١٧ه: ص٥٦).

المبحث الثاني

طبقة الاشراف وأسباب ظهورها الاجتماعية في العصر النبوي

طبقة الاشراف في عصر النبوي هم الكفار الذي رفضوا رسالت النبي ﷺ لذلك رفض النبلاء والكفار في صدر الإسلام. دعوة النبي الكريم ورسالته، وفسروا دعوته بالسحر والباطل والزندقة. وكان أشراف مكة يكذبون على أن الدعوات التوحيدية للنبي الكريم.غير معروفة، وهي بالتأكيد هدفنا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (ص: ٦).

قال العلامة الطباطبائي: يقصدون الدين الذي تدينت به الأمم والأمم الأخرى في ذلك الوقت أو نحو ذلك اليوم العربي، بخلاف الأديان الأولى. الذي كانت الأمم متدينة في الماضي، وكأنهم يريدون أن يقولوا: هذا ليس ديناً سيقبله كل شعوب العالم باعتباره الدين

الأخير، ولكنه من نفس الأساطير القديمة (الطباطبائي، ١٩٩٧م: ج١٧، ص٢٧٩)

ومن أجل منع انتشار الدعوة الإلهية لنبي الإسلام..وقمع الدين الجديد، استخدم نبلاء قريش وطبقة ألأشراف وشيوخها وسائل وأساليب مختلفة مثل الرشوة والسخرية والاستهزاء. الاعتداء الجسدي، ولكن لم يكن أي منها مفيدا أو فعالا (ابن هشام، ١٩٥٥م: ج١، ص٢٦٦)

وكان من أساليب طبقة أشراف و المشركين في معاملة رسول الله..الاستهزاء به لإزعاجه. وكان الهدف الأساسي هو سحق شخصية النبي..وعزله. وفي هذه الأثناء حاول بعض أشراف قريش أكثر من غيرهم في هذا الأمر. ومن هؤلاء يمكن أن نذكر (أبو جهل، وأبو لهب، وأسود بن عبد يغوث، والوليد بن مغيرة، وعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبو سفيان بن حرب وغيرهم) مذكورون في القرآن وأحياناً ومواساة النبي.يمكن الرجوع إلى: الآية ٩٥ من سورة حجر، ١٠ سورة الأنعام، ٣٣ سورة. وذكر رعد ٤١ سورة الأنبياء، و٥٥ و٥٣ سورة الذاريات، و٤٨ سورة الفصل، و٤١ سورة الفرقان. ومن حالات الاستهزاء بالنبي يمكن أن نذكر الحالات التالية:

- إطلاق ألقاب مثل: الكذاب، والساحر، والمجنون، وأسوأ المجنون، والتي وردت في القرآن في سورة الذاريات، الآية ٥٣ و٥٥.

وكون النبي.. لم يكن له ولد أو أنه كان شيخاً فقد قال العاص بن وائل (والد عمرو بن العاص) أن الله أنزل سورة الكوثر في هذا التهمة (ابن سعد، ١٤٠١هـ: ج١، ص٢٠٠-٢٠١)

اما أسباب ظهور طبقة الأشراف في العصر النبوي:

قال ابن سعد: كان أسباب ظهور طبقة الأشراف في العصر النبوي: لان المجتمع العربي قبل الإسلام. مبنياً على النظام القبلي، حيث كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية. وكانت بعض القبائل تتمتع بمكانة أعلى من غيرها بسبب تاريخها، وشجاعة رجالها، أو نفوذ زعمائها. ومع ظهور الإسلام.، لم يتغير هذا النظام القبلي بشكل كامل، بل استمرت بعض القبائل في الحفاظ على مكانتها المرموقة، وتحول زعماؤها إلى طبقة من الأشراف.

النسب والوراثة: كان النسب عاملاً مهماً في تحديد المكانة الاجتماعية. فالأشراف كانوا ينتسبون إلى الأسر ذات النسب الرفيع، والتي كانت تتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة عبر الأجيال. وكان ينظر إلى النسب على أنه دليل على الأصالة، والشرف، والقدرة على القيادة.

القيادة والزعامة: كان الأشراف في الغالب هم قادة القبائل وزعماؤها. وكانت القيادة والزعامة تمنحهم نفوذاً وسلطة كبيرين، وبالتالي تعزز مكانتهم كأشراف في المجتمع. وقد لعب هؤلاء الزعماء دوراً هاماً في إدارة شؤون القبائل، وحمايتها، وتمثيلها في العلاقات مع القبائل الأخرى.

الفضائل والقيم الاجتماعية: كان المجتمع العربي يقدر بعض الفضائل والقيم الاجتماعية مثل الشجاعة، والكرم، والحكمة، والفصاحة. وكان الأشراف في الغالب هم من يجسدون هذه القيم، وبالتالي كانوا يحظون بالاحترام والتقدير من قبل أفراد المجتمع.

الدور الديني والسياسي: بعد ظهور الإسلام.، لعب الأشراف دوراً هاماً في نشر الدين الجديد، وفي إدارة شؤون الدولة الإسلام.ية. فقد كان بعض الأشراف من أوائل المسلمين، ومن الصحابة المقربين للنبي محمد ﷺ، مما زاد من نفوذهم ومكانتهم. كما تولى بعض الأشراف مناصب قيادية في الدولة الإسلام.ية، مثل الإمارة والقضاء، مما ساهم في تعزيز مكانتهم كأشراف (ابن سعد، ١٤٠١هـ: ج١، ص٢٠٠-٢٠١)

فنرى كانت طبقة الأشراف جزءاً من النظام الاجتماعي في العصر النبوي، وكان لها أسباب اجتماعية وتاريخية متجذرة. ومع ظهور الإسلام.، طرأت بعض التغييرات على هذه الطبقة، ولكنها لم تختفِ تماماً.

المبحث الثالث

طبقة الاشراف وأسباب ظهورها الاجتماعية في العصر الخلفاء

بعد وفاة الرسول الكريم ﷺ تم اختيار العديد من المسؤولين الحكوميين من بين الأشخاص غير المؤهلين، وأصبحت الطبقة الاشراف هي أولوية المسؤولين والمسؤولين الحكوميين ومصدر كل الفساد والانحرافات اللاحقة. عانى المجتمع الإسلام. من اضطرابات اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية كثيرة طوال ربع قرن بعد الرسول الكريم لان كثير من

المسولين كانوا من طبقة الاشراف وأسباب ظهورها الاجتماعية في العصر الخلفاء الراشدين.، وخاصة في عهد الخليفة الأموي الثالث. و وصل الأمر إلى أن الأقرباء، الذين لم يكونوا فقط غير مؤهلين، بل أسوأ الناس، حصلوا على المكانة والكرامة، وأعطيت لهم خزائن المسلمين، حتى "الوليد بن عقبة" الذي سماه الله صراحة "" فاسقا ومجرما (وصف نزول الآية ٦ من سورة الحجر)، وتولى ولاية الكوفة. وعندما وصل الوليد بالعمل إلى ذروته في تشابافال بيت المال، صرخ امير المومنين علي عليه السلام على الخليفة في ذلك الوقت: "أصلحه وعاقبه ولا تحمله المزيد من المسؤولية".

ومن الأمور الأخرى التي أغضبت الناس مسألة التبرعات الكبيرة من بيت مال المسلمين، منها ٣٠٠ ألف درهم، بالإضافة إلى الإبل التي تجمع زكاة، بالإضافة إلى الأراضي التي وهبها النبي.. للمسلمين. وكان عند الحارث بن الحكم؛ ٣٢ مليوناً و٢٠٠ ألف درهم لطلحة؛ ٥٦ مليوناً و٨٠٠ ألف درهم للزبير و... فنرى طبقة الاشراف في زمن الخلفا الاولين اخذوا كثير من المناصب الدولة وأسباب ظهورها الاجتماعية في العصر تسلط كثير من أشراف الذين لهم جاه في ذلك الزمان

في مثل هذا الوضع الذي بلغ فيه الفساد والعار والرغبة في الخزانة ذروتها، بعد خمسة وعشرين عاماً من المكوث في البيت، امير المومنين علي، بإصرار الناس ولأنهم سئموا الفساد الموجود و تحول البعض قبل الحكومة حسب التقاليد الجاهلية الماضية وفي الخطوة الأولى قام بإقالة المسؤولين الفاسدين وغير الأكفاء وأعاد الأصول المنهوبة للخزينة وقال؛ واعلم أن كل أرض وكل مال أعطي لأحد من مال الله يعود إلى الخزانة. حتى لو أعطيت مهور نسائكم، ولن أعطي امتيازات خاصة لأحد، وأولئك الذين حصلوا على ثروة غير متوقعة من خلال اغتصاب الممتلكات العامة، سيعيدهم علي جميعًا إلى بيت المال.

المبحث الرابع

أسباب ظهورها الاجتماعية في عهد الخلفية أبو بكر

عند استعراض الأحداث التاريخية وأسباب ظهور الأشراف في عهد الخليفة أبو بكر، نجد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم توفي يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الحادية عشرة، وفقًا لروايات أهل السنة، بينما تشير روايات بعض محدثي الشيعة إلى أن وفاته كانت في ٢٨ صفر من نفس

العام. انتشر خبر وفاة النبي ﷺ بسرعة في المدينة المنورة التي كانت صغيرة آنذاك، ويبدو أن بعض الأشخاص الذين كانوا يبيتون نوايا للوصول إلى السلطة منذ تدهور صحة النبي ﷺ بادروا إلى التحرك بمجرد سماعهم هذا النبأ. وكان علي عليه السلام والفضل بن العباس وعدد من الآخرين مشغولين في تغسيل جثمان النبي الأعظم ﷺ.

في هذه الأثناء، كان سعد بن عبادة، زعيم الخزرج، يجلس في سقيفة بني ساعدة وهو مريض، محاطًا بمجموعة من الأنصار من الأوس والخزرج، حيث كان يتحدث باسمهم ويشير إلى فضائل الأنصار وحقهم في الخلافة مقارنة بالمهاجرين. (ابن قتيبة، ١٤٠١هـ: ج١، صص١٢. ١٥).

تعتبر الأخبار المتعلقة بما حدث في السقيفة وما دار بين المهاجرين والأنصار مشهورة ومعروفة. وتشير المصادر إلى أن انتخاب أبو بكر تم وسط جدال ونزاع شديدين، حيث قام الحباب بن المنذر من الأنصار بشهر سيفه في مواجهة المهاجرين. كما شهدت السقيفة موقفًا حادًا، إذ حاول سعد بن عبادة، الذي كان في وضع حرج، أن يجذب عمر بن الخطاب من لحيته في تلك الأجواء المحتدمة (الطبري، ١٤١٥هـ: ج٢، ص٢٢٠ -٢٢٣). ثم خلال تلك الأحداث، دخلت قبيلة بني أسلم، المرتبطة بالمهاجرين، إلى السقيفة، حيث ملأ أفرادها الأزقة وقدموا بيعتهم لأبي بكر (فياض، ١٣٦٩ش: ص١٣١). ورُوي عن عمر قوله: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، ووقى الله الناس شرها. ومن هنا نجد أن أبا بكر قام بوعود عديدة لكثير من الأشراف، بل وحتى للمناصب في الدولة (البلاذري، ١٩٧٨م: ج١، ص٥٩٠ -٥٩١).

وقد لخص الشيخ المفيد أسباب هذا النصر في النقاط التالية: ١. انشغال علي بن أبي طالب عليه السلام في مراسم وفاة النبي ﷺ وما يتعلق بها؛ ٢. ابتعاد بني هاشم عن المشهد السياسي بسبب المصيبة التي ألمت بهم (المفيد، ١٤١٣هـ: ص١٠١). ٣. اختلاف الأنصار؛ ٤. كراهية "الطلقاء والمؤلفة قلوبهم" لتأخير الأمر.

في اليوم التالي لاجتماع السقيفة، تولى أبو بكر المنبر لإتمام مراسم البيعة الرسمية. افتتح عمر بن الخطاب الجلسة بكلمة موجزة استذكر فيها ما أورده بخصوص وفاة الرسول الكريم ﷺ، ثم استطرد في تعداد فضائل أبي بكر وحث الحاضرين على مبايعته. كان النخبة من الأشراف أول المبايعين بعد أن وعدهم أبو بكر بمناصب قيادية، غير أن بعضهم عدل عن

بيعته لاحقاً لاعتبارات تتعلق بأهلية عشيرته للحكم. ثم تقدم الجمع العام لتجديد البيعة التي سبق أن تمت في السقيفة. وعقب ذلك، ألقى أبو بكر خطاباً قال فيه: "أيها القوم، لقد تسلمت زمام أموركم دون ادعاء الكمال، فإن أصبت فساندوني، وإن أخطأت فقوّموني. سأكون حامياً للضعفاء حتى أرد لهم حقوقهم، وسأكون رادعاً للأقوياء حتى أستخلص الحق منهم. إياكم والتخلي عن الجهاد، فإن الأمم التي تتركه تصب عليها الذلة. طاعتي لكم مرتبطة بطاعتي لله ورسوله، فإذا خالفت شرع الله فلا سمع ولا طاعة لي عليكم. انهضوا الآن لأداء الصلاة، رحمكم الله". (ابن هشام، ١٩٥٥م: ج ٤، ص ٣١١).

وقال في خطبته الأخرى بعد حمد الله:

"أيها الناس! إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق. إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات، وأنا مجرد تابع ولست مبتدعاً. فإن استقمت فتابعوني، وإن انحرفت فقوّموني. ألا وإن لي شيطانًا يعتريني، فإذا أتاني، فاجتنبوني" (ابن سعد، ١٤٠١هـ: ج ٣، ص ٢١٢).

من وجهة نظر العلماء والباحثين من أهل السنة، فإن هاتين الخطبتين تعكسان أدب وتواضع أبي بكر، وحرصه على التمسك بالسنن النبوية، وتعتبران إرشادات قيمة للأجيال القادمة في أسلوب إدارة الدولة (العظم، ١٤٠٤هـ: ص ٩٠، ٩١). في المقابل، يرى علماء الشيعة أن بعض أجزاء هاتين الخطبتين تمثل طعونًا على أبي بكر وعدم لياقته للخلافة، وقد استندوا في ذلك إلى عقائدهم. (مبدأ الإمامة) (الفيروز آبادي، ١٩٦٨م: ج ٩، ص ١١).

وعلى الرغم من تثبيت خلافة أبي بكر رسمياً خلال ذلك الاجتماع، إلا أن مجموعة بارزة من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار امتنعوا عن تقديم البيعة. وتذكر المصادر التاريخية أسماء عدد منهم، نذكر منهم: علي عليه السلام، سعد بن عبادة، العباس بن عبد المطلب، الفضل بن العباس، الزبير بن العوام، خالد بن سعيد، المقداد بن عمرو، سلمان الفارسي، أبوذر الغفاري، عمار بن ياسر، البراء بن عازب، حذيفة بن اليمان، خزيمة بن ثابت، أبو أيوب الأنصاري، سهل بن حنيف، عثمان بن حنيف، أبو الهيثم بن التيهان، سعد بن أبي الوقاص، أبو سفيان بن حرب (اليعقوبي، ١٩٩٥م: ج ٢، ص ١٢٣-١٢٦).

من بين هؤلاء كان سعد بن عبادة الذي كان يزعم أحقيته بالخلافة، بالإضافة إلى شخصيات مثل أبي سفيان وأنصاره الذين كانت لديهم أهداف دنيوية (البلاذري، ١٩٧٨م: ج ١، ص ٥٨٨). وكان هناك فريق آخر يرى أن الخلافة حق لعلي عليه السلام استناداً إلى تاريخه في الإسلام، وخدماته الواضحة، وقربه من النبي صلى الله عليه وآله. وقد استُند إلى هذه النقاط في السقيفة لتبرير تفضيل أبي بكر للخلافة، وكان علي عليه السلام وبنو هاشم يحتجون بها أيضًا لإلزام المخالفين (اليعقوبي، ١٩٩٥م: ج ٢، ص ١٢٥-١٢٦).

يرى فريق من المسلمين، وهم أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، أن الخلافة وقيادة الأمة الإسلامية تمثلان أعلى منصب ديني، ولا تُتركان للاجتهاد أو الشورى، بل تستندان إلى نصوص شرعية وتعيينات إلهية. ويستدلون على ذلك بآيات قرآنية، منها قوله تعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ٣٣)، معتبرين أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام داخلون في هذا الاصطفاء، لما يتمتعون به من الكمال والفضائل ذاتها. كما يحتجون بالآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥)، التي يرون أنها نزلت في الإمام علي عليه السلام. وإلى جانب الآيات، يستندون إلى روايات نبوية متواترة تثبت التعيين، منها حديث الدار الذي رواه الطبري، وحديث الغدير الذي أورده المحب الطبري، وغيرها من الأحاديث التي تفيد بتحديد الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله (الطبري، ١٤١٥هـ: ج٢، ص٣١٩-٣٢١). وحديث الغدير(المحب الطبري، ١٤٢٨هـ: ص ٦٧-٦٨). تتباين الأخبار حول امتناع علي عليه السلام عن البيعة، وكذلك حول كيفية وزمان بيعته لأبي بكر، حيث توجد اختلافات وأحيانًا تناقضات في هذه الروايات. يمكن تقسيم هذه الأخبار إلى مجموعتين رئيسيتين: المجموعة الأولى تتضمن، مع بعض الاختلافات في اللفظ والمضمون، ما يشير إلى أن عليا عليه السلام بايع أبا بكر طوعًا أو كرهاً بعد ساعات من البيعة العامة (البلاذري، ١٩٧٨م: ج١، ص٥٨٥، ٥٨٧). حتى إنه ورد في إحدى هذه الروايات، التي يتضمن سندها اسم سيف بن عمر، أنه عندما سمع علي عليه السلام أن أبا بكر قد اجتمع للبيعة، جاء إلى المسجد مسرعًا دون إزار أو رداء خشية أن يفوته الأمر، ليبايع. وبعد ذلك، جلس إلى أبي بكر وأرسل إلى منزله ليحضر له ثيابه (الطبري، ١٤١٥هـ: ج ٣، ص ٢٠٧).

وأما المجموعة الأخرى، فتمثل الروايات التي تتحدث عن امتناع علي عليه السلام عن البيعة، حيث تشير أو تعلن صراحة عن هذا الامتناع لفترة تتراوح بين ٤٠ إلى ٧٥ يومًا، أو حتى بعد وفاة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بعد مرور ٦ أشهر (اليعقوبي، ١٩٩٥م: ج٢، ص١٢٦).

ورغم أن عمر بن الخطاب ذكر في خطبته على منبر مسجد المدينة، ضمن حديثه عن أحداث السقيفة، أن "عليا والزبير ومن معهما تخلّفوا عنا في بيت فاطمة" (ابن هشام، ١٩٥٥م: ج٤، ص٣٠٨ -٣١٠)، مما يدل على اعترافه بامتناع علي عليه السلام عن البيعة وانضمام مجموعة إليه، إلا أن مؤرخي أهل السنة، باستثناء بعض القلة، لم يظهروا اهتمامًا بذكر أو تفصيل هذا الموضوع. ورغم ذلك، كان يتم سرد هذه الحادثة في بعض المصادر بشكل متقطع.

ولأن خبر هذا الأمر قد رُوي بشكل منفصل دون ربطه بأخبار أخرى، ودون تحديد لتسلسل الأحداث، فإنه لا يمكن تحديد ما إذا كان طلب البيعة من علي عليه السلام وأصحابه قد تم فور انتهاء اجتماع السقيفة والمجيء إلى المسجد، أو بعد البيعة العامة، أو بعد دفن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (البلاذري، ١٩٧٨م: ج ١، ص ٥٨١).

واستنادًا إلى روايات موثوقة من كل من الشيعة وأهل السنة، فإن عليا عليه السلام امتنع عن مبايعة أبي بكر لمدة ٦ أشهر، أي حتى وفاة فاطمة عليها السلام (الطبري، ١٤١٥هـ: ج٣، ص٢٠٨). بل تشير بعض الروايات إلى أن أيا من بني هاشم لم يبايع أبا بكر قبل أن يبايع علي عليه السلام، وبعد ذلك أو قبله بقليل، بايع هؤلاء بالإضافة إلى مجموعة من أنصار علي عليه السلام مثل حذيفة بن اليمان، وخزيمة بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وسلمان الفارسي، وأبي ذر، وخالد بن سعد، وغيرهم (البلاذري، ١٩٧٨م: ج ١، ص ٥٨٨). وقد عبر كل واحد من هؤلاء خلال البيعة عن رأيه أو شعوره تجاه علي عليه السلام والخلافة.

كما أوردت المصادر كلام سلمان الفارسي، الذي كان جزء منه بالفارسية والآخر بالعربية، حيث قال: "كرداذ وناكرداذ [أي: عملتم وما عملتم]، ولو بايعوا علياً لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم" (البلاذري، ١٩٧٨م: ج١، ص٥٩١).

وما جعل عليا عليه السلام يبايع أبا بكر لم يكن، خلافًا لما ورد في بعض الروايات، إعراض الناس عنه بعد وفاة فاطمة عليها السلام، بل كان نتيجة اتساع نطاق حركة الردة وتمرد القبائل وظهور مدعي النبوة في الجزيرة العربية (الطبري، ١٤١٥هـ: ج ٣، ص ٢٠٧).

كما ذكرت بعض المصادر أن الأسباب التي دفعت الإمام علي عليه السلام إلى القبول بالمبايعة رغم اعتقاده بأحقيته في الخلافة تعود إلى الضغوط الشديدة التي تعرض لها، إضافةً إلى الخوف على حياته. وقد ورد في رواية أن أبا حنيفة سأل مؤمن الطاق ذات مرة: "إن كانت الخلافة من حق علي عليه السلام، فلماذا لم ينهض لاستردادها؟" فأجابه: "خوفًا من أن تقتله الجن كما قتلوا سعد بن عبادة"، في إشارة تهكمية إلى ما كان يتداول من روايات، لكنها تعكس واقعًا سياسيا مضطربًا وظروفًا محفوفة بالتهديدات، جعلت الإمام علي عليه السلام يقدّم مصلحة الإسلام ووحدة الأمة على المطالبة بحقه في القيادة (الطبرسي، ١٤٢١ه: ج ٢، ص ٣٨١).

روايتا ابن قتيبة

وقد ورد في الإمامة والسياسة خبران بهذا الشأن هما أكثر شمولية من بقية الأخبار:

الخبر الأول:

ذهب عمر بن الخطاب إلى دار الإمام علي عليه السلام برفقة عدد من الصحابة، منهم أُسيد بن حضير وسلمة بن أسلم، ودعوا عليا وبني هاشم إلى التوجه إلى المسجد ومبايعة أبي بكر، غير أنهم رفضوا الانصياع لذلك. وعندما أشهر الزبير بن العوام سيفه احتجاجًا، أمر عمر سلمة أن ينزعه منه ويضربه بالجدار، ففعل، ثم أُخذ الزبير وأُلزم بالمبايعة، وكذلك أُلزم بعض بني هاشم. أما الإمام علي عليه السلام، فقد بقي على موقفه، محتجًا على بيعة أبي بكر بنفس الحجة التي استخدمها أبو بكر لإقناع الأنصار بحق المهاجرين في الخلافة.

وعندما أصر عمر عليه قائلاً: "إنك لن تُترك حتى تبايع"، أجابه الإمام علي عليه السلام: "احلب حلبًا لك شطره، واشدد له اليوم أمره، يردده عليك غدًا"، في إشارة إلى أن دعم عمر لأبي بكر ما هو إلا تمهيدٌ لعودتها إليه لاحقًا. فردّ أبو بكر قائلاً: "فإن لم تبايع فلا أكرهك"، ثم تدخّل أبو عبيدة بن الجراح قائلاً لعلي: "يا علي، سلم الأمر لأبي بكر".

وبعد ذلك، خطب الإمام علي عليه السلام في جمع من المهاجرين، موضحًا حقه وأهل بيته في الخلافة، ومحذرًا من الانجراف وراء الأهواء والانحراف عن هدي الله. فرد عليه بشير بن سعد الأنصاري قائلاً: "لو كنا سمعنا منك هذا من قبل يا علي، قبل أن يبايع الأنصار أبا بكر، لما اختلف عليك اثنان".

وفي مساء ذلك اليوم، خرج الإمام علي عليه السلام بصحبة فاطمة الزهراء عليها السلام، يطوف على مجالس الأنصار طالبًا منهم النصرة، لكنهم كانوا يقولون لها: "يا بنت رسول الله، لو أن زوجك سبق إلى بيعتنا قبل أبي بكر، لما قدمنا عليه أحدًا"، مما يعكس الندم الكامن في نفوسهم، والفرصة التي فاتتهم في نصرة الإمام (ابن قتيبة، ١٤٠١هـ: ج ١، ص ١١-١٢).

الخبر الثاني:

ورد في الخبر الثاني الذي يحتمل أن يكون جزءًا من الخبر الأول مع تغيير في موضعه، أن أبا بكر تفقد جماعة تخلفوا عن مبايعته عند علي عليه السلام، فبعث عمر إليهم. جاء عمر ونادى عليهم وهم في دار علي، لكنهم أبوا الخروج. فأحضر الحطب وقال: "والذي نفس عمر بيده، لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها". فقيل له: "يا أبا حفص! إن فيها فاطمة"، فأجاب: "وإن" (البلاذري، ١٩٧٨م: ج ١، ص ٨٥٦).

فخرجوا جميعًا وبايعوا، باستثناء علي. بعد هذه الأحداث، رُويت تفاصيل إضافية تتعلق بما حدث، مثل خطاب علي، وعتاب فاطمة، وإرسال مجموعات متتالية بتحريض من عمر لأخذ البيعة من علي، واقتياد علي إلى المسجد وتهديده بالقتل. كما تضمنت الأحداث كلام علي الغاضب، ودعاء فاطمة وتأوهها، وأخيرًا بكاء أبي بكر وقوله: "أقيلوني بيعتي". (اليعقوبي، ١٩٩٥م: ج ٢، ص ١٢٦).

ورغم أن بعض المصادر التاريخية تجنبت سرد هذه الحادثة كاملة أو أغفلت الإشارة إليها، مراعاةً لاعتبارات سياسية أو مذهبية، فإنها - بقصد أو دون قصد - أثبتت وقوعها من خلال نقلها لما ورد عن أبي بكر في أيامه الأخيرة وهو على فراش الموت. فقد رُوي عنه أنه قال: "إني لا آسَى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن، وددت أني لم أفعلهن، وثلاث تركتهن، وددت أني فعلتهن..."، ومن بين ما ندم عليه قوله: "فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وإن كانوا قد غلّقوه على الحرب". وهذه العبارة تعكس إدراكه في أواخر حياته لخطورة ما جرى، وندمه على اقتحام بيت الزهراء عليها السلام، حتى وإن كان ذلك قد بُرر في حينه بدوافع سياسية أو أمنية، مما يؤكد وقوع الحادثة من حيث الأصل، ولو بطريق غير مباشر.

الخبر الثالث:

جاء في رواية أخرى، يرجّح أن تكون امتداداً للرواية السابقة مع اختلاف في الترتيب، أن أبا بكر سأل عن مجموعة من الصحابة تخلّفوا عن بيعته، وكانوا عند الإمام علي عليه السلام، فبعث عمر إليهم ليأخذ منهم البيعة. فذهب عمر إلى دار علي عليه السلام ونادى على من فيها، لكنهم امتنعوا عن الخروج. عندها أحضر الحطب وهدد قائلاً: "والذي نفس عمر بيده، لتخرجنّ أو لأحرقنّها على من فيها"، فقيل له: "إن فيها فاطمة"، فردّ بكلمة صادمة: "وإن".

إزاء هذا التهديد، خرج من في الدار وبايعوا، عدا الإمام علي عليه السلام الذي بقي على موقفه. وتشير بعض الروايات إلى أن الأحداث تصاعدت بعد ذلك، فوردت تفاصيل حول خطبة ألقاها الإمام علي عليه السلام في جمع من المسلمين بين فيها احتجاجه، وكلام الزهراء عليها السلام وعتابها الشديد، وما تبعه من إرسال وفود متعاقبة بتحريض من عمر لأخذ البيعة قسراً من علي عليه السلام. ويروى أنه أُخذ إلى المسجد تحت التهديد، بل وقيل إنه وُوجه بالوعيد بالقتل.

وتضمنت الروايات مشاهد مؤثرة، منها غضب الإمام علي عليه السلام، وتأوه الزهراء عليها السلام ودعاؤها، وانتهاء الموقف ببكاء أبي بكر وطلبه قائلاً: "أقيلوني بيعتي"، في إشارة إلى شعوره بالندم والضيق مما جرى، وهو ما يعكس عمق الأزمة التي صاحبت لحظات التحول في مسار الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم (المفيد، ١٩٩٦م: ص ٥٦-٥٧).

على الرغم من أن بعض المصادر التاريخية أحجمت عن سرد هذه الحادثة بشكل صريح أو أغفلت الإشارة إليها، ربما بدافع التحفظات السياسية أو المذهبية، إلا أنها - بقصد أو من غير قصد - أكدت وقوعها من خلال ما نقلته عن وصية أبي بكر في أواخر أيام حياته، وهو على فراش المرض. فقد رُوي عنه أنه قال: "إني لا آسَى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن، وددت أني لم أفعلهن، وثلاث تركتهن، وددت أني فعلتهن..."، ومن بين ما ندم عليه قوله: "فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وإن كانوا قد أغلقوه على الحرب...".

ويفهم من هذا الاعتراف أن ما جرى تجاه بيت الزهراء عليها السلام لم يكن أمراً هينًا حتى على من صدر عنه، بل شكل له موضع ندم وأسف في لحظاته الأخيرة، مما يعزز الروايات

التي تحدثت عن تلك الواقعة، حتى وإن سُكت عنها أو تم التهوين من شأنها في بعض المتون التاريخية (ابن عبد ربه، العقد الفريد: ج٤، ص٢٦٨).

مصادرة فدك:

من أبرز الخطوات التي اتخذها أبو بكر في الأيام الأولى من توليه الخلافة كانت مصادرة أرض فدك، والتي كانت تحت يد الزهراء فاطمة عليها السلام. ورغم أن بعض مصادر أهل السنة أوردت بإيجاز هذه الحادثة، فإنها أشارت إلى مطالبة فاطمة بحقها في فدك واحتجاجها أمام الخليفة، وإلى ردّ أبي بكر عليها بالقول المنسوب إليه: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة"، وهو ما أثار غضب الزهراء عليها السلام ودفعها لبيان موقفها عبر خطبتها المعروفة في المسجد (البلاذري، ١٩٨٨م: ص ٤٤-٤٦).

وقد تناول بعض العلماء والباحثين هذا الموضوع بتفصيل أوسع، بعد تتبعهم لمجموعة من الروايات التي وردت في كتب الحديث والسير، والتي أشارت إلى أن فدك كانت هبة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة عليها السلام في حياته، وأنها كانت تحت تصرفها بالفعل، الأمر الذي يجعل تصرف أبي بكر مثار جدل فقهي وتاريخي. كما أن الروايات أجمعت على أن فاطمة عليها السلام خرجت من عنده وهي غاضبة، ولم تكلمه حتى وفاتها، وهو ما يدل على عمق الخلاف الذي نشأ حول هذه المسألة، وأثره النفسي والعقائدي في بيت النبوة وفي الوعي الإسلامي العام.

وقد أثبت عدد من الباحثين من أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، استناداً إلى روايات واردة في كتب أهل السنة، أن فاطمة الزهراء عليها السلام لم تتوقف عن المطالبة بحقها في فدك بعد أن صودرت بأمر من أبي بكر، بل كانت تحتج مراراً عليه أمام أهل المدينة خلال الفترة القصيرة التي عاشتها بعد وفاة والدها صلى الله عليه وآله وسلم. وقد رافق هذا الحدث المؤلم حادثة أخرى تمثلت بإرسال رجال لاقتحام دار الإمام علي عليه السلام لإرغامه على البيعة، وهو ما عمّق الجرح في قلب الزهراء وأثار غضبها.

وتشير تلك المصادر إلى أن فاطمة عليها السلام غضبت على أبي بكر وأعرضت عنه، ولم تكلمه حتى وفاتها، كما أنها أوصت بأن لا يشهد هو ولا عائشة جنازتها، ولا يشاركا في دفنها. وقد نُفذت وصيتها، فكانت وفاتها ودفنها ليلًا وبعيداً عن أعين من كانت ساخطة

عليهم، في موقف اعتبره كثير من الباحثين دليلاً دامغًا على عمق الخلاف وشدة المظلومية التي تعرضت لها بضعة الرسول ﷺ (المحقق الكركي، نفحات اللاهوت: ص٧٨).

وذُكر في بعض الروايات أن فاطمة الزهراء عليها السلام، وبعد أن عرضت حججها وأدلتها على أبي بكر بشأن حقها في فدك، رقّ لها قلبه وبكى، ثم كتب لها وثيقة يقر فيها بملكيتها لفدك. غير أن عمر دخل في تلك اللحظة، وحين علم بالأمر اعترض بشدة على أبي بكر، قائلاً له: "أتُنفق من بيت مال المسلمين؟ ألا ترى أن العرب قد انبرت لحربك؟"، في إشارة إلى الظروف السياسية المضطربة آنذاك.

ثم قام عمر - بحسب هذه الرواية - بأخذ الوثيقة من يد فاطمة أو من يد أبي بكر، ومزّقها، مما مثّل انتكاسة لمطلب الزهراء عليها السلام وإمعانًا في حرمانها من حقها، وزاد من شعورها بالمظلومية. ويستدل من هذه الحادثة، كما ورد في تحليل عدد من الباحثين، على حجم النفوذ الذي كان يتمتع به عمر في توجيه القرار السياسي في بدايات الخلافة، وعلى مدى التوتر الذي أحاط بموقف أهل البيت عليهم السلام في تلك المرحلة المفصلية من تاريخ الإسلام (الحلبي، ١٤٢٧هـ: ج ٣، ص٣٦٢).

وقد رأى بعض علماء أهل السنة أن مصادرة فدك والتصرف فيها من قِبل أبي بكر تندرج في إطار الاجتهاد الشخصي، واعتبروها ممارسة مشروعة ضمن صلاحيات الخليفة في إدارة شؤون بيت مال المسلمين. وقد فسّروا هذا التصرف بأنه نابع من حرص أبي بكر على وحدة الأمة وعدم التمييز بين أفرادها.

إلا أن الشيعة خالفوا هذا الرأي بشدة، واعتبروا ما جرى ظلمًا صريحًا لفاطمة الزهراء عليها السلام، وعدّوه من الطعون الكبرى على أبي بكر، مستندين في ذلك إلى قول النبي ﷺ: "فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله"، معتبرين أن إيذاء فاطمة هو إيذاء للرسول ولله تعالى، وهو من الكبائر التي لا تبررها اعتبارات سياسية أو اجتهادية.

ويؤكد هذا النقد أن فدك كانت المصادرة الوحيدة التي وقعت في عهد أبي بكر، وهو ما يعزز الاعتقاد بأن الدافع وراء هذا الفعل كان سياسيا بالدرجة الأولى، خاصة وأن روايات متعددة تشير إلى بذل وعطاء واسع من بيت المال لجهات مختلفة بهدف تثبيت أركان

الخلافة الجديدة، في الوقت الذي حُرمت فيه ابنة رسول الله ﷺ من حقها المشروع، بحسب الرواية الشيعية (ابن أبي الحديد، ٢٠٠٧م: ج١، ص٢٢٢).

نتائج البحث:

كانت طبقة الأشراف في زمن الخليفة الأول أبي بكر، تتكون بشكل أساسي من الصحابة الذين هاجروا إلى المدينة المنورة مع النبي محمد، و الذين كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية ودينية رفيعة. كان لهذه الطبقة دور بارز في إدارة شؤون الدولة الإسلامية الوليدة، وقد شاركوا في المشورة واتخاذ القرارات المهمة.

ومع ذلك، من المهم التوضيح أن المجتمع الإسلامي في ذلك الزمن كان مجتمعًا بسيطًا نسبيا مقارنةً بالدول الحديثة، فلم تكن هناك تراتبية صارمة أو فوارق اجتماعية كبيرة مثلما نراه في بعض المجتمعات الأخرى. وإن كانت هناك اختلافات في الثروة والمكانة الاجتماعية، إلا أن قيم المساواة والعدل كانت سائدة، وذلك بفضل التعاليم الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع

- إن خير مانبتديء به القران الكريم.

١. ابن أبي الحديد، محمد. (٢٠٠٧م). شرح نهج البلاغة. بيروت: دار الكتاب العربي دار الاميرة للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الاولى.

٢. ابن الاثير، عزالدين علي بن أبي الكرم. (١٩٩٧م). الكامل في التاريخ. بيروت: دار الكتاب العربي.

٣. ابن خرداذبة، عبيد الله. (١٨٨٩م). المسالك والممالك. بيروت: دار صادر أفست ليدن.

٤. ابن سعد، محمد بن منيع. (١٤٠١هـ) الطبقات الكبرى. دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية.

٥. ابن فارس، احمد بن فارس. (١٤٠٤هـ). معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. قم: مكتب الاعلام الإسلامي.

٦. ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم. (١٤٠١هـ). الإمامة والسياسة. بيروت: مؤسسة الوفاء.

٧. ابن كثير، اسماعيل بن عمر. (١٤٢٦هـ). البداية والنهايه. بيروت: دار الفكر.

٨. ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٤١٤هـ). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

٩. ابن هشام. عبد الملك بن هشام الحميري أبو محمد. (١٩٥٥م). السيرة النبوية. تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

١٠. الازهري، محمد بن احمد. (١٤٢١هـ). تهذيب اللغة. بيروت: دار احياء التراث العربي.

١١. الأصفهانى، الراغب. (١٤١٢هـ). المفردات في غريب القرآن. دمشق: دار القلم.

١٢. برو، توفيق. (١٤١٧هـ). تاريخ العرب القديم. بيروت: دار الفكر.

١٣. البلاذري. أحمد بن يحيى. (١٩٧٨م). أنساب الأشراف. تحقيق: عبد العزيز الدوري. بيروت: جمعية المستشرقين الالمانية.

١٤. البلاذري. أحمد بن يحيى. (١٩٨٨م). فتوح البلدان. بيروت: دار مكتبة الهلال.

١٥. بيشوايي، مهدي، (١٤٣٦هـ) تاريخ الإسلام. قم: اسماعليان.

١٦. الجوادي، محمد. (٢٠٠٧م). «الأشراف في المشرق الإسلامي خلال القرن الأول للهجرة: إشكالية مفهوم الشرف و علاقات الأشراف بالدولة و بالشرف الإسلامي» التونسية للعلوم الاجتماعية – العدد ١٣٣ (22 صفحة – من ٣٣ إلى ٥٤).

١٧. الحلبي. علي بن إبراهيم. (١٤٢٧هـ). السيرة الحلبية إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٨. الراغب الاصفهاني، حسين بن محمد. (١٤١٢هـ). المفردات في غريب القرآن. دمشق: دار القلم.

١٩. رضا، أحمد. (١٤٠٩هـ). معجم متن اللغة. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٠. الزبيدي، مرتضى محمد بن محمد. (١٤١٤هـ). تاج العروس من جواهر القاموس. بيروت: دار الفكر.

٢١. الزحيلي، وهبة. (١٤١١هـ). التفسير المنير في العقيدة و الشريعة و المنهج. دمشق: دار الفكر.

٢٢. زيدان، جرجي. (٢٠٢٠م). تاريخ التمدن الإسلامي. بيروت: القلم.

٢٣. السيوطي، عبد الرحمن بن ابي بكر، (١٩٩٥م). الاتقان في علوم قرآن. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٤. الطباطبائي، محمد حسين. (١٩٩٧م). الميزان في تفسير قرآن. بيروت: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات.

٢٥. طبرسي، احمد بن علي. (١٤٢١هـ). الاحتجاج. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٢٦. طبري، محب‌الدين. (١٤٢٨هـ). ذخائر العقبى في مناقب ذوي‌القربى عليهم السلام. قم: مؤسسه دارالكتاب الإسلامى.

٢٧. الطبري، محمد إبن جرير. (١٤١٥هـ).تاريخ الطبري. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٨. علي، جواد. (١٩٧٦م). المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. بيروت: دار العلم للملايين.

٢٩. فياض، علي‌اكبر. (١٣٦٩ش). تاريخ إسلام. طهران: دانشگاه تهران. مؤسسه انتشارات و چاپ.

٣٠. الفيروز ابادي. مجد الدين محمد. (١٩٦٨م). القاموس المحيط. بيروت: دار الفكر.

٣١. الفيومي، احمد بن محمد بن علي. (١٩٨٧م). المصباح المنير. بيروت: مكتبة لبنان.

٣٢. متز، ادم. (١٩٤١م). الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٣٣. المجلسي، محمد باقر. (١٤٠١هـ). بحار الأنوار. بيروت: مؤسسة الوفاء.

٣٤. المفيد. محمد بن محمد. (١٤١٣هـ). الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد. تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام. قم: كنگره شيخ مفيد.

٣٥. المفيد، محمد بن محمد (١٩٩٦م). كتاب الجمل. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٣٦. النيسابوري. مسلم بن الحجاج (١٩٥٥م). صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. مصر: دار احياء الكتب العربية.

٣٧. اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب. (٢٠٠٢م). البلدان. تحقيق: محمد أمين. بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٨. اليعقوبي، أحمد. (١٩٩٥م). تاريخ اليعقوبي. بيروت: دار صادر للنشر.